القيم الأخلاقية في تقريظ ابن سوَّار الأشبوني

د. مروة مرشد محمد/ الباحث الأول
الجامعة العراقية/ كلية التربية للبنات
marwameme500@gmail.com
م.م. أسماء كمال عبد الغني رشيد/ الباحث الثاني
جامعة النهرين/كلية الهندسة
Asmaa.kamal@ced.nahraiuniv.edu.iq

The Moral Values in the Praise of Ibn siwar Al-ashboni

Dr.Marwa Murshid Mohammed
Al-Iraqia University/College of Education for Girls
Asst.lect. Asmaa kamal Abd Al-Ghani
Al-Nahrain University/College of Engineering

المستخلص

يتناول البحث القيم الأخلاقية في خطابات المديح للشـاعر ابن سـوَّار الأشـبوني، أحد شـعراء العصـر الأندلسي، والذي لم تطاله أيدي المحدثين وقبلهم القدامى، حيث لم نجد أخبار عنه بصورة مفصلة، وبقيت أشعاره في طيات المصـادر بصـورة متفرقة، حتى جمعها أ. د. محمود شـاكر السـاجت (رحمه الله)، بجهد متميز، وطبع بصـورة ديوان عام ٢٠١٨م، ليكون مرجعاً يثري به المكتبة الأندلسية.

بعد مراجعة ما أفصح به ابن سوَّار لاحظت هيمنة القيم الأخلاقية في خطاباته، وعدم نكران فضل من له الفضل في كشف كربته، وهذا من شيم العرب الأصـلاء الضـارب في القِدم، وتضمنت أشعار ابن سوَّار على القيم الأخلاقية: المجد والعلا، الكرم والجود، الشجاعة، التسامح والصفح، العدل والحكمة.

الكلمات المفتاحية

(ابن سوَّار الأشبوني، القيم الأخلاقية، العصر الأندلسي)

Abstract

The research examines the ethical values in the eulogistic poems of the poet Ibn Sowar Al-Ashbuoni, one of the Andalusian poets of the past, whose works have not been extensively studied by modern and classical scholars. There is a lack of detailed information about him, and his poems remained scattered in various sources until they were collected by Dr. Mahmoud Shakir Al-Sajit (may he rest in peace). He made a distinguished effort to compile them and published them as a collection in 2018, making it a valuable reference that enriches the
Andalusian literary library.

After reviewing what Ibn Sowar revealed, I noticed the dominance of ethical values in his speeches. He did not deny the merit of those who had a role in alleviating his distress, reflecting the noble Arab tradition deeply rooted in history. Ibn Sowar's poems encompassed ethical values such as glory and elevation, generosity and benevolence, courage, tolerance and forgiveness, justice, and wisdom.

Keywords: (Ibn Sowar Al-Ashbuoni, Ethical Values, Andalusian Era)

ترجمة الشاعر

أبو بكر محمد بن سوَّار الأشبوني، شاعر وكاتب أندلسي ذائع الصيت في زمانه، عاصر ملوك الطوائف وامتدحهم، ولم نجد أخباره الا في قلة من المصادر، والتي أشارت بطريقة مقتضبة عنه [١].

وِلدَ وترعرع في أشبونة التي تقع غرب الأندلس، وعاش نهاية القرن الخامس وبداية السادس الهجري [٢]، قال عنه صاحب الذخيرة: " أبو بكر في وقتنا واحد عصره " [٣]، وعندما خُلع ملوك عصره، مرت عليه محنة الأسر من قبل النصارى، وجرت عليه المحن [٤]، فسجن بقورية الواقعة غرب طليطلة، على أحد فروع نهر تاجه، من أعمال وتدبير فرديناند [٥]، وأخذ يستغيث بمن ينجيه من الأسر، والعذاب الذي كان يكابده، ويرد له حريته، قوله:

فناديتُ في حولٍ من الدهر كامل		ألا رجلٌ حرٌّ ألا رجلٌ حرُّ
وإن وراء البحر أروع ماجداً		بعزَّته الغَّراء يُستَنْزَلُ القطرُ
الا خبِّراني ابني أبي هل أتاكما		وشيكاً عن القاضي أبي حسنٍ ذكرُ
ألا إنما الدنيا عليَّ وقربهُ		وإلا فإن الأرضَ عامرها قفرُ[6]

حتى فداه قاضي سلا في المغرب ابن عشرة [٧].

وابن عشرة هو علي بن القاسم القاضي (أبو الحسن)، من أعيان سلا [٨]، أحد رؤساء المغرب الأوسط، فقيه أديب بليغ جواد من أهل العلم والنباهة، رقيق الطبع منشرح الصدر في مجالسه مع صحبه [٩].

القيم الأخلاقية

لم يخل الشعر العربي من القيم والعادات الأخلاقية الأصيلة منذ القدم، لما له من دور في تهذيب وصقل النفوس، فللشعر وظيفة إنسانية في مختلف المجتمعات، في كل

زمان ومكان؛ فهو يساعد على تنظيم الواقع وضبطه، كونه يمثل مستودع الثقافات العربية بتنوع قيمها وتوجهاتها.

والقيم الأخلاقية توجه الفرد وتحثه لأداء واجبه كسلوك ديني إنساني ثقافي واجتماعي، ليؤدي ما عليه تجاه مجتمعه، بهدف استمرار التواصل وتحقيق الأواصر السليمة، التي جاءت بها الرسالة السماوية. فروح الأمة هي الأخلاق، من قيمٍ وفضائل ومُثل وعادات حسنة، والتي يسمو بها المجتمع للعلا، ولنا خير مثال في رفرفة رايات الإسلام.

فالجانب الأخلاقي لأي مجتمع يربط ماضيه بحاضره، وبذلك يعزز القيم والفضائل الإيجابية، ويبث المحبة والألفة والتعاون بين الناس، ليبني أمة حضارية صلبة عالية الهمة، تفيد من ماضيها الخالد، وتعزز من حاضرها وتؤمن بمستقبلها. فقد سخر الله بعض الناس لبعضهم، لإدامة الحياة وبقاء الخير فيها، فكان تقويم الأخلاق من أولويات الإسلام، لتنظيم السلوك الإنساني والتحلي بالخلق النبيل.

فالأخلاق بالنسبة للإنسان " تنظم قيمه بما يحقق اتساقه مع الاخرين ومع الكون " [١٠]، فيزداد كمالا وتميزا عن بقيةِ البشر، مما يمنحه طابع القداسة، " فالأخلاق هي الحياة الإنسانية، وروح المدينة، وناموس الاجتماع، ومعراج السعادة والرقي " [١١].

ومن هنا اطلق ابن سوأَر الأشبوني العنان للسانه، لاهجاً بحبه، معبراً عن امتنانه لمن أعانه، فقدَّم خطابات صادقة، " قالها تحبباً لا تكسباً، وعمّر مجالسهم بها وفاءً لا استجداء " [١٢].

ومن أهم القيم التي وظفها ابن سوأَر في تقريظه لممدوحيه: المجد والعلا، الكرم والجود، الشجاعة، التسامح والصفح، العدل والحكمة.

أولاً: المجد والعلا

احتفى العرب بأمجاد قومهم وتغنوا بالمعالي وفاخروا وتفاخروا بأيام العز، فأن لمن الشرف أن يحسن الأنسان من صنع تاريخ مجيد عتيد، ليسخر امكانياته في خدمة قومه وأمته، وبذلك تصدح ألسنة الشعراء لتخليد تلك المكرمات فتبقى على صفحات الأزمان ما مرت الأيام.

وقد أطال ابن سوأَر الوقوف عند أمجاد ممدوحه، فلا عجب فالمجد هو المروءة، السخاء، الكرم، الاباء والسؤدد، وهو " في كلام العرب الشرف الواسع " [١٣].

ومما نضمه الأشبوني في هذا الغرض قوله:

كرمتمْ فروعاً في المعالي حميدةً		**وطابتْ أصول منكمُ وعروقُ** [14]

فأكرم وأنعم من فروع وعروق وأصول هذه السلالة الكريمة النسب، السامية المعالي.

ومن أجل طلب المجد، والوصول إلى العلا، يترك الممدوح الصِبا ليصبو إلى الصَبا، في إشارة إلى تسنم أعالي الأمور وأفضلها، فهذا الشهم الصنديد لا يأبه باللهو، أنما بيده السيوف والرماح في سوح الوغى:

صَبا بالغواني من صبا وهو لم يزلْ		**ببنتِ المعالي هائماً كلفاً صبا**
فتىً يهبُ البيضَ الكواعبَ كالدمى		**وبيضَ الظبا والسُّمرَ والضُّمَّر القبَّا**
لقد وهب اللهُ الجمالَ لأحمدٍ		**وشرَّف منه الخلق والخُلقَ العذبا**
...		
إذا اكتسب الناسُ الدنانيرَ عدَّةً		**فأحمدُ لا يرضى بغير العلا كسبا**
كذاك مَضَتْ في السالفات جدودُهُ		**كما مرَّ كعبُ الرمح مطَّرداً كعبا** [15]

فهو لا يرضى الا بالوصول للمعالي وكسبها، مثلما تسعى الناس لكسب المال، وهذا ما كان عليه أجداده وأسلافهم.

وفي خطاب أخر يعلي الأشبوني من مكانة بني عشر، فيقول:

ولم يحكمهم صوبُ الحيا لكن اغتدى	بما فيهمُ من شيمةٍ وخلالِ
وجاءوا على جيد الزمانِ قلائِداً	وأفعالُهم فيها ضروبُ لآلِ
أقاموا لواءَ المكرماتِ وخيَّموا	من المجدِ والعلياءِ تحتَ ظلالِ
إذا احتجبوا لم يَسترِ الحجبُ نورهم	وإن طلعوا كانوا بدورَ جَمالِ
أو انتسبوا في المجدِ كان انتسابُهُم	لأعظم عمّ أو لأكرم خالِ
وإن ورثَ العلياءَ عنهم عليُّها	فلا بدعَ في حالٍ وراثةُ عالِ
سكينتُهُ من أعْفَرِ ويلملم	وبعضُ رجالِ في سكونِ جبالِ
إليكَ رمتنا العيسُ حتَّى كأنَّها	من الوَهنِ أقواسٌ رَمت بنبالِ (16)

يقف شاعرنا عند صفات ممدوحيه، وكيف تنوعت شيمهم ومكارمهم وأفعالهم، فصنعوا مجدهم بأيديهم، وفي استعارة اعتاد الشعراء على توظيفها في خطاباتهم، يقول الشاعر بأنهم قلدوا الدنيا بقلائد، فزادت شرفاً وبهاءً، كالتي تتزين بها المرأة لتبدو بأحسن صورة.

ثم يردف في صورة إبداعية لاستعارة ثانية في جعل للمجد والعلياء ظل، حيث يخيم القوم تحت لواءها أمنين، في دلالة على علو الهمة وشدة البأس، ولا يمكن لشي من حجب سطوع نورهم حين يريدون ذلك، فهم من يعود أصل مجدهم وسموهم لطرفي نشأتهم من أعمام وأخوال كرام.

فالاستعارة في الأبيات أعلاه ترسم صورة بلاغية متوازنة، بين رقة الألفاظ وجزالتها، وكيفية توظيفها من قبل الشاعر لتخدم النص، فتصل إلى قلب المتلقي قبل سمعه.

ومن بديع تغني ابن سوار في بهاء وطلة وطباع بني عشر، قوله:

بحيثُ بنو عَشرٍ تنيرُ وجوهُهُمْ		**كمات طَلَعَتْ ليلاً بدورُ تمام**
فما أكثر المثني عليهم سجيَّةً		**وما أشبَهَ النُّعْمى بطوقِ حمام**
رعى الله فيكم ذمَّةَ المجد والعلا		**فلا خَلقَ أرعى منهمُ لذمام** [17]

فصورة بدر التمام، من التشبيهات التي أيضا استعان بها الشعراء في وصف محبيهم، فأكثر ما يمتلكه قومه الخلال الحسنة الحميدة والتي فطروا عليها، فلا أحد له من السيادة والوجاهة كبني عشر، ولا غيرهم يرعى الأمانة والعهد الذي يقطعونه لأهلهم.

ثانياً: الكرم والجود

إن لمن مكارم الأخلاق والقيم السامية والصفات النبيلة، أن يكون الأنسان كريما جواداً، فالكرم من العادات التي ميزت المجتمعات العربية القديمة، حيث انكبت دراسات عديدة لتميط اللثام بشيء تفصيلي لهذه الركيزة والبحث عن أصولها وفروعها وتاريخها. وقد بانت فاعلية هذه القيمة وتأثيرها في المجتمع بصورة إنسانية اجتماعية وحتى سياسية.

والإسلام حث على هذه القيمة الخلقية الفضيلة، قوله تعالى: "لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ" [18]، قول الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم): " اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً " [19].

ومن الصور التي أجاد الوصف بها ابن سوارَّ:

إذا نزلَ العافون في عُقْرِ دارِهَ		فقد نزلوا في غبطةٍ وأمانِ
بحيث حياضُ الجودِ زُرقٌ مياهُها		وَمُزْنُ العطايا دائمُ الهطلانِ
وللغيثِ أوقات يفاجئُ صَوْبُهُ		ونائلُهُ ينهلُّ كلَّ أوانِ
أغرُّ طليقُ الوجهِ يهتزُّ للندى		كما اهتزَّ مصقولُ الفرندِ بماني
فما لعليٍّ في البريَّةِ مُشبه		وما لعليّ في الأنام بثاني
فلو أنني في الوصف لم أذكر اسمه		دَرَوْهُ وقالوا: ذي صفاتُ فلانِ [20]

فإكرام الضيف من الخصال التي امتدت من العصر الجاهلي، ولنا في حاتم الطائي وغيره خير مثال على مر العصور، وما زال العربي يتمسك بهذه السُنة الحسنة، ويخلدها الشعراء عبر خطاباتهم.

فشاعرنا هنا يجعل من ملجأ ممدوحه مكان سعادة وأمن لكل من يطلبه، فخيره وافر فياض، وعطاياه مستمرة كالغيث الذي يروي عطش الظمآن، فالغيث نزوله يكون في أوقات دون غيرها، أما عليٌ فوفرة كرمه في كل زمان، فهو لا يثنى ولا يوجد له شبه، ومعروف بين رعيته بخلاله، حتى دون ذكر اسمه والتعريف به. فنلاحظ جمال الألفاظ المنتقاة من شاعر فذ، أوجر فأنجز بحق ممدوحه بعبارات تمتاز بالجزالة والسهولة في آن واحد، يستطيع المتلقي خلاله بتخيل سخاء هذا المحمود.

وفي قول أخر يذكر ابن سوار عن كف ممدوحه الذي يجود الخير والبركة على الرعية، فهو من الأعمال الصالحة التي يدخرها لأخرته، وكيف كان خير معين للشاعر حين فداه لخروجه من السجن، وقربه منه ورعاه، وذاقه حلو الحياة، فلا يمكن رد هذا المعروف بغير الدعاء ليدم السمو والرفعة والعمر المديد، بقوله:

رأيتكَ أندَى الناس كفًّا وكلُّ ما		تجودُ بهِ فاللهُ ينميهِ للأخرى
ولولاك ما فَكَّ السلاسلَ ضاغطٌ		وما فارقت عيناي سِلسِلةَ الأسرى
وصَيَّرت عيشِي في جنابكَ بالذي		مَننْت به حُلْواً وكم ذقتُه مُرًّا
على ذاك لا أَنفَكُّ أخْلِصُ داعياً		إلى اللهِ أن يُنْمِي لك الجاهَ والعُمْرَا [21]

وفي خطاب اخر، يلجأ ابن سوار إلى استخدام الاستفهام الاستنكاري، قوله:

أمثل عليّ تطلبُ العينُ أن ترى		ومثلُ عليّ في الملوك غريبُ
فتىً يهب الدنيا ويرتاحُ للندى		كما اهتزَّ غصنُ البانِ وهو رطيبُ
وتأتي عطاياه اطَّرادَ خصالهِ		كما اطَّردتْ للسمهريّ كعوبُ
وإن كنتُ قد أضربتُ عن مدح غيره		فليس له في العالمين ضريبُ
أحبُّ سَلا من أجلِ كونك في سلا		فكلُّ سلاويّ إليَّ حبيبُ
لصيَّرتَها مصراً فَنَيلُك نِيلها		وكفَّاكَ بطحاها وأنت خصيبُ [22]

لا يزال الشاعر يضفي صفات الكرم والعطايا الجزيلة، التي يهبها ممدوحه، حتى يبالغ في قوله (فليس له في العالمين ضريبُ) أي نظير، وحين يقول بأنه قد أحب كل من في سلا، مدينة محموده، وجعله حبيب له، وقد يكون هذا التمجيد نابع من رد جميل ابن سوار للقاضي علي، الذي كان خير معين له في محنته، فليس من شيم العربي الأصيل انكار من مد يد العون له.

فالكرم والجود له أناسه، وقد يحصل عليه الرعية حتى دون طلبهم ذلك، ويبدو أن الخير معدٍ، فقوم بنو عشر كانوا على خطى قاضيهم، قوله:

ويُطلبَ الجودُ من قوم وجود بني		عَشرٍ يجيئك عفواً دون مطلوبِ
محاسنٌ ثقفت منها أوائلهم		كماَ تَثقَّفُ أنبوبٌ بأنبوبِ [23]

وفي وصف جمع الأشبوني فيه بين الحب، السماحة، المجد، الشرف، الفصاحة، الجود، العلا، وطيب الأصل والمعشر يقول:

يا راقدَ الليلِ التمام جفونُهُ		إنّي بحبّكَ ساهرٌ ما أرقدُ
إني لأرحم خَصْرَهُ من رقَّةٍ		وأرِقُّ للغصنِ الذي يتأوَّدُ
وغدا يطمّعني الوصالَ تمنيّاً		إني سأهْلك قيل أنْ يدنو غدُ
ولبست أثوابَ الملاحةِ مثلما		لبس السماحةَ والرجاحةَ أحمدُ
لو كان خُلّدَ فاضلٌ لفضيلةٍ		فيه لكان على الزمانِ يخلدُ
المجدُ والشَّرفُ المؤثَّلُ والندى		والجودُ والعَليا له والسؤددُ
وبلاغةٌ لم أدرِ حين سمعتها		أفصاحةٌ أم لؤلؤ متبدّدُ
لا ناطقُ عَجلُ الكلام بها ولا		متوقّفٌ فيها ولا متردّدُ
من معشرٍ طابوا مناصبَ في العلا		وإذا يطيبُ الأصلُ طابَ المولدُ[24]

فتغني شاعرنا بحه الصادق لابي الحسن علي بن عشرة لا غرابة فيها، فعليٌ صاحب نباهة وعلم ورياسة دينية وفضل وسؤدد، وعطاء جزيل، وجود فياض، وكلمته مسموعة عند امراء الدولة، حتى تجاوز صيته إلى الأصقاع الأندلسية [٢٥].

ثالثاً: الشجاعة

الظروف التي فرزتها حياة العربي بصورة عامة كانت تتطلب منه، القوة، ركوب الصعاب، شدة البأس، العزيمة والثبات، لذلك تمثل الشجاعة القيمة والمكانة المتميزة لدى المجتمع العربي، وقد شهدت العصور الأندلسية عدة صراعات داخلية وخارجية، لم تعرف لها هوادة، لذا فمن الطبيعي أن يُهيئ أفراد المجتمع جسدياً ونفسياً، لمواجهة الصعاب حين يتطلب الأمر ذلك، فالبيئة الأندلسية ولاّدة لرجال يحملون من الجسارة والإقدام ورباطة الجأش، جعلتهم في الصف الأول، حتى ما افنكت كتب التاريخ والأدب من تسطير مواقفهم البطولية، فانطلقت ألسن الشعراء صادحةً مادحةً بجولات الحق حباً واعتزازاً وتفاخراً وفاءً لأهله.

" فالشجاعة هي أهم صفات البطل، لأنها العماد الذي تقوم عليه شخصيته، وتتوقف شهرته، وعده بطلاً حقيقياً " (٢٦).

فلم يفت على ابن سوَّار أن يسطّر شدة مراس الممدوح على جنبات ديوانه، بخطابات متفرقة هنا وهناك، منها:

يقولُ رجال غيرَ ما يفعلونُهُ		**وإنَّ عليَّاً قائل وفعولُ**
فلا تطلبوا في ساحةِ الأرض مثَلهُ		**فمثلُ عليّ في الملوكِ قليلُ** (27)

وفي موضع أخر يقول ابن سوار:		
في كلِّ عام غزوةٌ مبرورةٌ		**تردْي عديد الروم أن تُفنيهِ**
تصلُ الجهادَ إلى الجهادِ موفَّقاً		**حَتَمَ القضاءُ بكلَّ ما تقضيهِ**
ونجيّ ما دبَّرتهُ كنجيّهِ		**فكأنَّ كلَّ مغيَّبٍ تدريهِ**
متواضعاً لله مُظهِرَ دينه		**في كلِّ ما تبديه أو تخفيهِ**
ولقد مَلَكتَ بحقَّك الدنيا وكم		**مَلَكَ الملوكُ الأمرَ بالتمويهِ**
لو رامتِ الأيامُ أن تُحْصي الذي		**فَعَلَتْ سيوفُكَ لم تكنْ تحصيهِ** (28)

يصور الشاعر صولات وشجاعة ممدوحه، الذي كان يقود الغزوات المباركة فيردي الروم أرضا، متواصلا في جهاده لا يهاب مواجهة الموت وما سيفضي اليه نهاية المعركة، وحتى لمن كثرت ما قاد من غزوات لا يمكن إحصاء ما فعله سيفه بالأعداء.

فانتصار القوم على الأعداء، وشحذ هممهم الدفاع عن أرضهم، وقوة الشكيمة التي يتحلون بها، والفخر بالنصر، هي من أكثر القيم المعنوية التي يقدمها الشاعر بأدواته لقومه.

ولا يمكن من ذكر الحرب دون أدواتها، من خيل ورمح وسيوف هندية، قول الشاعر:

إنَّ من بعدِ بني القاسم لا		أحد يملأُ عيناً من جوادِ
نَسَبٌ مُطَّرِدٌ من شرفٍ		ككعوبِ الرمح ذاتِ الإطِّرادِ
وقبيلٌ كُلُّهُ من عزَّةٍ		كظبا الهنديّ في يومِ الجلادِ
وبنو عَشرٍ ذوو العلياءِ لم		يخلقوا إلا لكف وذياد
وعفافٍ واعتكافٍ وتقىً		ووفاءٍ وعطاءٍ وأيادي [29]

فالعربي بطبعه محب للسلاح، لطبيعة الظروف التي فرضتها عليه البيئة الاجتماعية، من نزاعات داخلية وخارجية لم تعرف الهوادة، ولكونه –أي السلاح– رمز للفروسية والشجاعة [٣٠]، وللشاعر دور مهم في توثيقه لتلك الأجواء ووصف مدارها، وعلى رأسها أنواع العتاد والتغني بمسمياته التي اطلقها العرب، والتي من شأنها رفع المعنويات والهمم عالية، وإحراز التقدم والنصر على الأعداء.

رابعاً: التسامح والصفح

العفو عن الناس، وحسن الظن بهم، والتغاضي عن الإساءة، من القيم الأخلاقية الإسلامية الحميدة، فالتسامح سجية نبيلة، وخلق كريم، ومن علامات التقوى، ولنا في مرجعنا الأسمى العديد من الآيات القرآنية التي دعت للتسامح، قال تعالى: ((وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) [٣١].

فالتسامح إحسان، شجاعة، صلح، إيثار، رحمة، شرف، وعطاء، فهو يمثل منظومةٌ قيمية اجتماعية شاملة، تتصافى بها القلوب، وتدفع السيئة بالحسنة.

يقول الأشبوني:

ولما طغى قوم وَفَرت لحومهم		فعاجَ فريق واستقامَ فريقُ

...

وجاءوك بالمكرِ الكريه وإنَّما		بصاحبه المكر الكريهُ يحيقُ
أراهم مكانَ الفضلِ منك فَرُوّعوا		كما انشقتْ ريحَ الغضنفرِ نوقُ
وفرُّوا ولولا حُسْنُ رأيكَ فيهمُ		لما حملتهمْ بعدَ ذلك سوقُ
فلا عَدِمُوا منكَ الذي عَهدوا فما		بغيركَ غفرانُ الذنوبِ يليقُ
توسَّعْتَ فضلاً في وليّ وحاسدٍ		ولم يكُ في باع المكارم ضيقُ [32]

يضمن ابن سوار خطابه باقتباسه من القران الكريم، قوله تعالى: ((اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ)) [٣٣]، ويبين موقف ممدوحه الشهم في العفو عن من أساء اليه، وهذه هي الاخلاق الرفيعة الفاضلة التي حث عليها الإسلام، العفو عند المقدرة، يقول تعالى: ((فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)) [٣٤].

وفي المعنى ذاته يقول الشاعر:

كنتَ الصَّفوح عن المسيء ولم يكنْ		إلا الجميلُ لديك والإجمالُ [35]

رابعاً: العدل والحكمة

أساس استقامة الأمة هو العدل، به يتحقق الأمان والاطمئنان والاستقرار، ويعود الحق لأصحابه، ليعم السلام ويكون القانون هو الفيصل، فالوقوف مع الحق وانصاف المظلوم، ورد الظلم، والمساواة بين الناس، من الثوابت الإنسانية، والتي أصبحت من الصعوبة في مجتمعاتنا، يقول تعالى : (اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [٣٦].

فلا يحيد الحاكم عن العدل، تجاه مجتمعه ووطنه، وهذا ما أمره به الإسلام، فالحاكم العادل تخط له كراريس بماء الذهب، فهو يستحق كل الثناء والمديح.

فتعمر الأرض بالعدل، وتصبح واسعة وإن كانت كالقبر في ضيقه الذي يكاد يطبق على صحابه، وهذا ما أجاد ابن سوَّار في تصويره:

بعدلِ عليّ تُعمَرُ الأرضُ كُلُّها	وتتَّسعُ الدنيا ولو أنها قبرُ
حنيني إليه موثقاً ومسرَّحاً	كما حنَّ للبرّ الذي يغرقُ البحرُ [37]

وفي تغني الأشبوني بسجايا وحكمة وبديهية ممدوحه يقول:

بنقيبةٍ من صحَّةٍ، وسجيَّةٍ	من روضةٍ، وسكينة من يذبلِ
ورويَّة من حكمة، وقضيَّةٍ	من فطنةٍ، وبديهة من منصل [38]

وله أيضا:

موفَّقُ آراء القضاءِ كأنَّما	بصيرتُهُ في الغيبِ تخترقُ الحجبا[39]

وكان ابن سوار قد غادر لتلمسان، ولم يطب له البقاء، فحن لسلا وممدوحه، لما وجد من مكانة رفيعة واعتبار، وما حصل عليه من عطايا ومزايا، فشد رحاله وعاد، فطاب له المقام [٤٠].

وقد عبر عن حبه لسلا وانتماءه لها واعتزازه باهلها :

ولقد ندمتُ على فراقِ سلا كما	ضعف الندامةَ حين أهبطَ آدمُ [41]

يقول:

سلا عَنْ سلا هل من عليّ حقيقةٌ	فإنّي في أحشاء قوريةٍ سرُّ [42]

وله أيضا:

أحبُّ سَلا من أجلِ كونك في سلا	فكلُّ سلاويّ إليّ حبيبُ [43]

الخاتمة

شكلت القيم الأخلاقية عند ابن سوار الأشبوني صورة هذا البحث، حيث أضاء بنصوصه جوانب تغنى فيها بأمجاد وكرم وبسالة وتسامح وعدل وحكمة بني عشرة، وعلى رأسهم قاضيهم الذي فداه وفك عنه أسره، وأفصح عن ذلك الحب والتعلق، فوظف الشاعر تلك القيم –والتي أحيانا ما جاءت منصهرة في نص شعري واحد– من (تفاخر بالأنساب والشرف، علو الهمة والاقدام، العفو عند المقدرة، شدة البأس والعزم وقوة الشيكمة ...) والتي جاءت ضمن أطار حبه الحقيقي لتلك الأيام التي قضاها الشاعر في بلاط عليٍّ بن القاسم.

اتسم طرح ابن سوار بالتقريرية، وبعده عن التعقيد، وغريب اللفظ ومستكرهه، فجاءت خطاباته مباشرة، لا غموض ولا غريب فيها، في أساليب بيانية سهلة، فهي تمثل القيمة الأخلاقية التي كانت نابعة من حقيقة اخلاص الأشبوني لملاذه الآمن والذي وجد فيه الاستقرار والطمأنينة والتهليل والترحيب، وأعانه على تخطي ما أصابه.

الهوامش

(١) ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) ، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، الطبعة الثانية، ١٩٨١م، ج٤/ ٨١١-٨١٢. بدائع البدائه، جمال الدين أبي الحسن علي بن ظافر بن حسين الازدي الخزرجي (ت ٦١٣هـ)، ضبطه وصححه مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص٥٨. المُغرب في حلى المغرب، أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥٥، ج١/ ٤١١-٤١٢. الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، (د: ط)، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، ج١١٩/٣. الإحاطة في اخبار غرناطة، أحمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٧، ج٤/ ٣٥٣. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت – لبنان، ج٣/ ٦١٢. سلا ورباط الفتح (اسطولهما وقرصنتهما الجهادية)، جعفر بن أحمد الناصري، تحقيق: احمد بن جعفر الناصري، ١٤٢٧- ٢٠٠٦م، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ج١/١٠٥ وما بعدها.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الأندلس)، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، (د: ط)، (د: ت)، ص٣٣٥. شعر ابن سوَّار الأشبوني الأندلسي، توثيق ودراسة: د. محمود شاكر الساجت، تموز للطباعة، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م، ص٥.

(٣) الذخيرة، ج ٤/ ٨١١.

(٤) ينظر: الذخيرة، ج٤/٨١١. المغرب في حلى المغرب، ج١/ ٤١١-٤١٢

(٥) ينظر: تاريخ الادب العربي (عصر الدول والإمارات الأندلس)، ص٣٣٥، سلا ورباط الفتح، ص ١٠٣.

(٦) شعره، ص ٦٣- ٦٤. وهذه القصيدة الرائية وصف بها الشاعر ما جرى عليه من المحن خلال سنة سجنه.

(٧) ينظر: الذخيرة، ج٤/ ٨١١، ٨١٢. المغرب في حلى المغرب، ج١/ ٤١١، ٤١٢. تاريخ الادب العربي، ص ٣٣٥.

(٨) بنو عشرة بسلا: أسرة عريقة في المجد والكرم والفضل والأدب والسؤدد، وأهل خير وصلاح، كان منهم الرؤساء والأمراء والقضاة والأدباء، وتعدد ذكرهم في المعاجم وكتب التاريخ في المغرب والأندلس، وكان يقصدهم من اشتدت كربته وحال بهم الازمات، ويلوذ بهم ذووا الحاجات، فيلقون المنزل الرحب، والمراعي الخصبة، وكانوا ممدحين من قبل الشعراء، مثل ابن بقي، الاعمى التطيلي، وغيرهم. ينظر: الذخيرة، ج٤/ ٦١٥، ٨١٢. الاستبصار في عجائب الأمصار، كاتب مراكشي (ت: ق ٦هـ)، دار الشؤون الثقافية، بغداد، (د: ط)، ١٩٨٦ م. نفح الطيب، ج٤/ ١٣. سلا ورباط الفتح، ج١/ ٢٦، ٢٧.

(٩) ينظر: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر الضبي (ت ٥٩٩هـ)، تحقيق: إبراهيم الابياري، دار الكتب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م، ج٢/ ٥٥٥. التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ)، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة – لبنان، (د: ط)، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، ج٣/ ٢٤٢. سلا ورباط الفتح، ج١/ ١٠٥.

(١٠) القيمة الأخلاقية، د. عادل العوا، مطبعة جامعة دمشق، (د: ط)، ١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م، ص١٤.

(١١) علم الاخلاق والتربية، محمد أحمد حجازي، دار الجوادين، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص ٥٤.

(١٢) الذخيرة، ج٤/ ٨١١.

(١٣) لسان العرب، لابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، (د: ت)، ج٤١٣٨/٦. (مادة مجد).

(١٤) شعره، ٧١.

(١٥) شعره، ٥٠.

(١٦) شعره،٨١– ٨٢.

(١٧) شعره، ٩٢– ٩٣.

(١٨) سورة ال عمران، اية ٩٢.

(١٩)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م، ج٣٦/٥٣.

(٢٠) شعره، ٩٩.

(٢١) شعره، ٦٦.

(٢٢) شعره، ص ٤٤– ٤٥.

(٢٣) شعره، ص ٤٨.

(٢٤) شعره، ص ٥٦– ٥٧.

(٢٥) سلا ورباط الفتح، ص ١٠١.

(٢٦) شعر الحرب في العصر الجاهلي، د. علي الجندي، دار مكتبة الجامعة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦م، ص ٩٦.

(٢٧) ديونه، ٧٤.

(٢٨) شعره، ١٠١.

(٢٩) شعره، ٦٠.

(٣٠) فالسلاح بالنسبة للعربي يعد مغنماً ولو ملكه وحده، فلا يدانيه ثروة ولا يوازيه مال، فبها يحفظ حياته وعزته وكرامته، ينظر: الفروسية في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية، ط٢، ١٩٨٤م، ص ١٧٠.

(٣١) سورة النور، اية ٢٢.

(٣٢) شعره، ٧٠– ٧١.

(٣٣) سورة فاطر، آية ٤٣.

(٣٤) سورة الشورى، اية ٤٠.

(٣٥) شعره، ٧٦.

(٣٦) سورة المائدة، اية ٨

(٣٧) شعره، ٦٤.

(٣٨) شعره، ٧٨.

(٣٩) شعره، ٥٠.

(٤٠) ينظر: سلا ورباط الفتح، ص ١١٠.

(٤١) شعره، ٩٠.

(٤٢) شعره، ٦٤.

(٤٣) شعره، ٤٥.

المصادر والمراجع

القران الكريم

- الإحاطة في اخبار غرناطة، أحمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٧.
- الاستبصار في عجائب الأمصار، كاتب مراكشي (ت: ق ٦هـ)، دار الشؤون الثقافية، بغداد، (د: ط)، ١٩٨٦م.
- بدائع البدائه، جمال الدين أبي الحسن علي بن ظافر بن حسين الازدي الخزرجي (ت ٦١٣هـ)، ضبطه وصححه مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر الضبي (ت ٥٩٩هـ)، تحقيق: إبراهيم الابياري، دار الكتب المصري ، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.
- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الأندلس)، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، (د: ط)، (د: ت).
- التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ)، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة – لبنان، (د: ط)، ١٤١٥هـ–١٩٩٥م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) ، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.
- سلا ورباط الفتح (اسطولهما وقرصنتهما الجهادية)، جعفر بن أحمد الناصري، تحقيق: احمد بن جعفر الناصري، ١٤٢٧– ٢٠٠٦م، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط .
- شعر ابن سوَّار الأشبوني الأندلسي، توثيق ودراسة: د. محمود شاكر الساجت، تموز للطباعة، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٨م.
- شعر الحرب في العصر الجاهلي، د. علي الجندي، دار مكتبة الجامعة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦م.
- علم الأخلاق والتربية، محمد أحمد حجازي، دار الجوادين، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

- الفروسية في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية، ط٢، ١٩٨٤م.
- القيمة الأخلاقية، د. عادل العوا، مطبعة جامعة دمشق، (د: ط)، ١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م.
- لسان العرب، لابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، (د: ت) .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.
- مغرب في حلى المغرب، أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥٥ م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت – لبنان .
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، (د: ط)، ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م.

References

-The Glorious Quran.
-Al-Ihata fi akhbar ghirnata , Ahmed bin Abdullah bin Saeed Al-Salmani Al-Lushi, origin of Al-Gharnati Al-Andalusi, Abu Abdullah, famous for the tongue of religion Ibn Al-Khatib (d. 776 AH), edited by: Muhammad Abdullah Anan, Al-Khanji Library, Cairo, first edition, 1977, C4.
- Al-Istibsar fi aja'ib al-amsar, a Marrakesh writer (d. 6 AH), House of Cultural Affairs, Baghdad, (d: edition), 1986 AD.
- Badāi' al-Bidāah, Jamal al-Din Abi al-Hasan Ali bin Dhafir bin Hussein al-Azdi al-Khazraji (d. 613 AH), compiled and authenticated by Mustafa Abdul Qadir Atta, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, first edition, 2007 AD.
-Baghyat al-mutalamis fi tarikh rijal ahl al-andulus, Ahmed bin Yahya bin Ahmed bin Amira, Abu Jaafar Al-Dhabi (d. 599 AH), edited by: Ibrahim Al-Abiyari, Dar Al-Kutub Al-Masry, Cairo, and Dar Al-Kitab Al-Lubani, Beirut, first edition, 1410 AH - 1989 AD, Part 2.
- History of Arabic Literature (The Era of the Andalusian States and Emirates), Dr. Shawqi Deif, Dar Al-Maaref, Cairo, (D: I), (D: T).
- Al-Takmila li kitab Al-Sila, by Ibn Al-Abar, Muhammad bin Abdullah bin Abi Bakr Al-Qadha'i Al-Balansi (d. 658 AH), edited by: Abdul Salam Al-Harras, Dar Al-Fikr Printing - Lebanon, (d: edition), 1415 AH - 1995 AD, vol. 3.
- Al-Dhakhira fi The Virtues of the People of the Peninsula, Abu Al-Hasan Ali bin Bassam Al-Shantarini (d. 542 AH), edited by: Ihsan Abbas, Arab House of Books, Libya - Tunisia, second edition, 1981 AD, Part 4.
- Salé and Rabat al-Fath (their fleet and their jihadist piracy), Jaafar bin Ahmed al-Nasiri, edited by: Ahmed bin Jaafar al-Nasiri, 1427-2006 AD, New Knowledge Press, Rabat, vol. 1.
- The Andalusian poetry of Ibn Siwar al-Ashbouni, documented and studied by: Dr. Mahmoud Shaker Al-Sajet, Tammuz Printing, Damascus, first edition, 2018 AD.
- War poetry in the pre-Islamic era, Dr. Ali Al-Jundi, Arab League Library, Beirut, third edition, 1966 AD.
- Ethics and Education, Muhammad Ahmed Hijazi, Dar Al-Jawadin, Beirut, first edition, 2010 AD.
- Chivalry in pre-Islamic poetry, Dr. Nouri Hamoudi Al-Qaisi, Arab Nahda Library, 2nd edition, 1984 AD.

- Moral value, Dr. Adel Al-Awa, Damascus University Press, (ed.), 1379 AH - 1960 AD.
- Lisan al-Arab, by Ibn Manzur, edited by Abdullah Ali al-Kabir, Muhammad Ahmad Hassaballah, Hashem Muhammad al-Shazly, Dar al-Maaref, Cairo, (d: T), vol. 6.
- Musnad of Imam Ahmad Ibn Hanbal, Abu Abdullah Ahmad Ibn Muhammad Ibn Hanbal Ibn Hilal Ibn Asad Al-Shaybani (d. 241 AH), edited by: Shuaib Al-Arnaout, Adel Murshid, and others, supervised by: Dr. Abdullah Ibn Abdul Mohsen Al-Turki, Al-Resala Foundation, Beirut, first edition. , 1421 AH - 2001 AD, vol. 36.
-Maghrab fi huli al-maghrib , Abu Al-Hasan Ali bin Musa bin Saeed Al-Maghribi Al-Andalusi (d. 685 AH), edited by: Dr. Shawqi Deif, Dar Al-Maaref - Cairo, third edition, 1955, vol. 1.
- Nafah al-Tayyib min ghison al-andalus al-ratib, by Shihab al-Din Ahmad bin Muhammad al-Muqri al-Tilmisani (d. 1041 AH), edited by: Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut - Lebanon, vol. 3.
- Al-Wafi bi al-Wafiyat, Salah al-Din Khalil bin Aibak bin Abdullah al-Safadi (d. 764 AH), edited by: Ahmed Al-Arnaout and Turki Mustafa, Dar Ihya al-Turath - Beirut, (d: edition), 1420 AH - 2000 AD, vol. 3.